

# تُرَاثُ الفِكرِ العَرَبِيِّ

## وَدَوْرُهُ فِي بِنَاءِ مَجْتَمَعِ حَدِيثِ

بِقِطْعَةِ الدُّوْرِ الحَبِيبِ الجَنَاحِيِّ

ان عمر الوعي السذائي العربي لا يتجاوز قرنا ، وهي فترة لا يحسبها في حياة الشعوب طويلة الا من لم يمسه الوعي التاريخي لتطور المجتمعات البشرية ، وبالرغم عن قصرها ففسد كانت مليئة بالاحداث الكبرى ، غنية بالنضال البطولي ، وقد اتسم هذا الوعي الذاتي بسماة بارزة من أهمها :

- محاولة الانتقال من الركود في مظهره الاقتصادي والاجتماعي الى التفاعل مع العصر .

- انفصل في مرحلة تاريخية معينة بين التحرر الاقتصادي والسياسي ، واعطاء الأولوية للثاني .

ومن الطبيعي أن يحتل التحرر السياسي المكانة الاولى في المرحلة الوطنية .

ومن المعروف أن كل احياء في العصر الحديث قد رافقه بعث للتاريخ القومي ، ونذكر على سبيل المثال فرنسا ، ألمانيا ، وإيطاليا . والتراث ركيزة التاريخ القومي ، ونؤمن انه يعسر علينا جدا الفصم بين التاريخ القومي للامة العربية وتراثها ، فهما ممتزجان لاسباب تاريخية موضوعية بصورة من الصعب أن نجد لها مثيلا في حياة الامم الاخرى .

ولم تشذ اليقظة العربية عن يقظات الشعوب الاخرى ، فقد رافقتها ، بالرغم من مواجهتها الصامدة لمخططات الاستعمار لطمس معالم الشخصية الوطنية ، وبتر الامة العربية عن ماضيها ، والاحتلال المباشر ، محاولات جادة منذ القرن التاسع عشر للعودة الى المنسابع الاولى ، ومحاولة التوفيق بينها وبين اليقظة الجديدة ، وهي محاولات ذات نزعة سلفية في بداية الامر ، وقد كان لها الفضل رغم سلفيتها في تجاوز عصور الجمود ، والتحجر الفكري ، والرجوع الى انتاج الفكر العربي الاسلامي ايام ازدهاره وتفتحته .

ونلاحظ منذ الثلث الاخير من القرن التاسع عشر ظهور تيارين في موقف النخبة من التراث : تيار سلفي ، وتيار تحري . وقد غلب الطابع الديني على أصحاب التيارين في اهتمامهم بشؤون التراث .

وقد تبلور موقف النخبة المثقفة من التراث بعد الحرب العالمية الاولى ، ونستطيع ترتيب النخبة حسب موقفها من التراث الى ثلاث فئات :

اولا - فئة السلفيين الذين يرون صورة الحاضر والمستقبل في الماضي ، فرفضوا العصر ، ولاذوا بالتراث وحده يتقنون به فيبافلون ،

ان المجتمع العربي يمر اليوم بمرحلة تمخض وانبعث ، وينزع جاهدا اى تعديل الاوضاع ، وقلب الهياكل ، وان هذا النزوع ، والسعي الثوري لتجاوز مرحلة تاريخية معينة ، والشروع في مرحلة جديدة لها معالمها الواضحة ، وأرضائها الجديدة ، وقواها الوطنية الطبيعية الحاملة لمسئلة النضال المتجدد ، الذي تستلزمه المرحلة التي تنرو لها الانظار منذ مدة طويلة ، يتخذ الطابع القومي بمحتواه الانساني الاصيل لانشاء امة متحررة ، متحدة ، توافقة الى نهضة علمية وتقنية حديثة ، منطلقة في توقعها هذا من الجوانب المشرقة الخالدة في تاريخ حضارتها الخصبة ، وفكرها البناء ، وتقاليدها العريقة ، ونضالها الخالد .

ستحول هذه الدراسة تسليط أضواء على بعض الجوانب من موضوع التراث ، وصلته بالمرحلة التاريخية الجديدة ، فعلقته بها - اذن - وثيقة ، ويدخل حتما في صميم معطياتها الحضارية .

قد يستغرب البعض أن يعالج الباحثون موضوع الكشف عن القيم التقدمية ذات النزعة الانسانية في تراث الامة العربية ، والانكباب على احيائه والتعريف به ، وهي تخوض معركة حاسمة ضد عدو مثلث : الامبريالية ، والصهيونية ، والتخلف .

ولعل أصحاب النظرة السطحية يرون في ذلك ضريا من ضروب الهروب من الواقع الماساوي الذي تعيشه الامة العربية اليوم .

اننا نفتقر مع هؤلاء في الرأي كل الافتراق ، فهو اتجاه تصوز انصاره النظرة الشمولية لمشاكل العالم العربي اليوم محاولين استغلال الهزيمة العسكرية للتشكيك في قيم الامة العربية . انهم يتنافلون عن الاسباب الحقيقية للهزيمة ، انها اسباب حضارية ، وليست عسكرية .

ان الكشف عن الجوانب المضيئة في تراثنا يمثل - في رأينا - احد موضوعات الساعة ، وهو وثيق الصلة بمعركة المصير العربي ، وليس هذا ناشئا عن عاطفة اعتزاز بالماضي وتصنيعه ، أو عن عدم وعي بنقاط الضعف الحقيقية في واقعنا ، بل نتيجة تحليل موضوعي لحاضر الامة العربية ، وتبني نظرة مستقبلية هادفة مدركة لمعالم النهضة العربية الحديثة . ان الانسان العربي ، عماد هذه النهضة التي تنحرق شوقا الى انطلاقتها العملاقة ، واكتسما لمعطياتها الختمية ، هو وليد الماضي السذي لم يعد موجودا الا عبر حاضرنا الاليم ، وقوة الاندفاع نحو المستقبل .

انتهازي تحريفي ، اذ يحاولون من وراء « المعاصرة » ، و « التفتح » تبرير غريبتهم الروحية والأيديولوجية في الواقع العربي ، وجبنهم السياسي في الدفاع عن المبادئ الاشتراكية التي آمنوا بها يوما ما ، ثم حولوها إلى شعارات انتهازية يسامون بها ذوي انسلطان الرجعي للمحافظة على امتيازات تجمع بينهم وبين امتيازات الفئات الحاكمة . ويجعلهم موقفهم الشاذ هذا ، ولا سيما في بعض بلدان القرب العربي ، يسرون في درب يفترق كل الافتراق عن درب اليسار الوطني ليجدوا أنفسهم في خاتمة المطاف - عن وعي ، أو عن غير وعي - يسرون في درب الفئات الحاكمة !!

والغريب ان أنصار هذين التيارين يرفعون شعار ضرورة تقليد البلدان المتطورة صناعيا في نهضتنا وتقدمنا ، ولكنهم يسكنون عسنا الاهتمام الكبير الذي توليه شعوب هذه البلدان لتراثها ، ولم تهملها أيام انطلاقها نحو نهضتها الحديثة ، وهي تعز بـكل ما يحتويه من غت وسمين . وحين تثار قضية التراث في هذه البلدان فمن أجل إيجاد أفضل السبل للمحافظة عليه ، والعناية بشؤونه ، وليس لمناقشة مبدئية لتحديد الموقف منه كما هو الشأن لدى بعض السياسيين والثقفيين في العالم العربي ، فهـل ذلك ناتج عن ان التراث العربي تراث خاص يتسم كله بانسطحية ، واللظيطة والرجعية كما يزعم البعض ؟ ان كل من يعرف هذا التراث يدرك ان أجدنا لم يكونوا على صواب مطلق ، ولم يجددوا دائما ، بل أخطأوا ، واجتروا ، كما انهم لم يكونوا مخطئين بالاطلاق ، مجزين في جميع العصور . ولكن ما رأي هؤلاء الرافضين في تراث الشعوب الأوروبية في العصر الوسيط ، وهو تراث يطغى عليه الطابع الأدبي ، وتسيطر عليه في روحه ، ومحتواه ، وذوق مبدئية العني الكنيسة بقدرتها المطلقة ، وطوقسها الشكلية العقدة المتحجرة ، وهو مليء بأخبار الحروب ، ومآسي اضطهاد الشعوب ، وكبت تفكر الإنسان الحر ، فجوانبه السلبية ليست أكثر إنسانية ، وأشد اشراقا من الجوانب المتأخرة المظلمة في التراث العربي الإسلامي .

فما هي الأسباب الحقيقية الكامنة وراء موقف الفئة الرافضة لتراثنا العربي رفضا مطلقا ؟

ان هذه الأسباب تباين بتباين الانجساعات السياسية ، والاختلافات العقائدية ، وتكثرت تزايد التركيز على سبب رئيسي بارز يتلخص في مركبات النقص التي غرسها بالأمس الاستعمار القديم ، واليوم الاستعمار الجديد في نفوس الكثير من السياسيين والثقفيين في العالم العربي ، وتذكر خطوره هذا العامل بالنسبة لعركة المصير العربي حين نلمس تأثيره السلبي السذي أصبح يتزايد في صفوف الجيل الصاعد ، وهو الجيل الذي سيقود هذه الحركة ، ويحمل مشعل النهضة العربية الجديدة . ويتسرب هذا الخطر في كثير من البلدان العربية عن طريق الفوز النربوي والثقافي نههد له السبيل شعارات « المعاصرة » السطحية ، تلك « المعاصرة » التي تكاد تنحصر في مظاهر شكلية ، و« تقليعات » فاشرة رغم بهرجتها .

ويستغل الاستعمار المنع هزيمة حزيران ، ووضع الإنسان العربي المأزوم اليوم ليفزو تلك المركبات ويركزها ، وخاصة في نفوس الشباب العربي ، وهكذا أصبح العالم العربي - في نظر الكثيرين - سجين عقدة النقص الحضارية .

ان هؤلاء الرافضين للتراث يحاولون الإيهام بان التراث باعتباره مظهرا سياسيا من مظاهر الاصاله متناقض مع المعاصرة ، وعائق للتقدم ، متخذين من المظاهر السلبية المتحجرة ، في تراثنا العربي ، حجة وبرهانا ، فيبافون ، ويطالبون بقطع الشجرة من جذوعها ، وهل نستطيع أن نحكم على طبيعة الغابة بشجرة واحدة ، أو حتى بشجرات !!

ومن البديهي انه ليس هنالك أي تنافس بين الاصاله باعتبارها

وهم متعلقون خاصة بجوانب المحافظة ، ومظاهر النقل في التراث ، ويتخرجون من تراث الفكر العربي الإسلامي التقدمي المتحرر . ولهذه الفئة تأثير قوي في صفوف الجماهير العربية الى يومنا هذا ، وموقفها من الجوانب الثورية المشرقة في تراثنا أكثر تزمنا وتحجرا من موقف السلفيين أيام ازدهار الحضارة العربية في القرون الوسطى .

ثانيا - فئة الراضين للتراث باسم المعاصرة ، فهم يرون صورة الحاضر في المستقبل ، وفي المستقبل فقط ، فقد ارتموا في أحضان الآخرين واغتربوا ، وفرصوا على أنفسهم عزلة في الواقع العربي ، وهي فئة قليلة تشكو ضروبا من المركبات وليس لها - في نظرنا - أي تأثير في صفوف الجماهير خلافا لما يراه البعض . وسنعود إليها بعد حين .

ثالثا - فئة الموفقين بين التراث والمعاصرة ، فزودوا أنفسهم بكل الزادين : الثقافة العربية الاصلية ، وثقافة النهضة المصرية ، وحاولوا أن يخرجوا منها ذلك المزيج الذي نطلق عليه « الثقافة العربية الحديثة » .

وقد قامت هذه الفئة ، وما تزال ، بدور ايجابي خطير بين صفوف النخبة العربية المثقفة ، حاملة مشعل النضال الحقيقي في إيمان ونفاؤل تقف في الصفوف الامامية من معركة المواجهة الحضارية التي تخوضها الأمة العربية ، فهي لم تتوقع داخل ماضي الاجداد ، ولم تبتر الشجرة من جذورها ، مفتخرة « بمعاصرة » الآخرين ، معاولا باسم ضرورة تقليد « الموضة » ان تبرر غريبتها في واقعنا العربي ، وان تخفي انبثاتها .

ان المعاداة بين التراث والمعاصرة التي حلتهما الفئة الثالثة ليست جديدة ، فقد حلها العرب من قبل حين التقت ثقافتهم وفيم فكرهم الديني الجديد بعد عهد الفتوحات بحضارة الساسانيين ، وثقافة الاغريق ، فلم يصب العرب آنذاك مرض مركبات النقص ، ولذا فلا نعثر على اثر لفئة الرافضين . فلما قبل المعتزلة ، والمتكلمون وفريق من الفلاسفة والمفكرين العرب عامة الثقافة اليونانية ، وحضارات الشعوب الأخرى ، لم يؤد قبولهم لتلك الثقافات الى التنازل قيد أنملة عن أي شيء من مقومات الثقافة العربية الاصلية . وقد كان للسلفيين تأثيرهم القوي ، ولكن الفئة التوفيقية هي التي كتب لها النجاح في النهاية ، ونحن لا نشك انها فئة المستقبل اليوم ايضا .

ولزام علينا ان نشير الى تيار جديد برز في كثير من البلدان العربية غداة الحرب العالمية الثانية ، وأصبح لموقفه من التراث شأن في السنوات الاخيرة ، ونعني هنا التيار الاشتراكي ذا الطابع الوطني ، فكثير من الناس لا يريدون أن يعترفوا بان الفكر التقدمي العربي قد لعب دورا ايجابيا رغم حصار التخلف الاقتصادي والاجتماعي ، والضعف السياسي المتواصل ، وقد ساهم في بلورة ملامح الشخصية القومية والفكرية ، ونظر اني التراث نظرة صائبة كانت منطلق موقف عدد كبير من المثقفين العرب اليوم تجاه عناصر التقدمية في التراث .

وأود أن أعود الى الكشف عن بعض النقاط في موقف الفئة الرافضة ، ولعل تسميتها بالفئة الهاربة أدق ، فمنطق نظرتها الاندحارية الى التراث منطقي نظري هروبي .

يستتر الرافضون للتراث رفضا مطلقا وراء المعاصرة والتفتح وادعاء الجديد من بهرجة خلافة ، والثورة التكنولوجية ، واصبحوا يتخذون من هزيمة الخامس من حزيران حجة على صحة مزاعمهم . ونجد في صفوف هذه الفئة في العالم العربي تيارا يقف وراءه بعض المسؤولين لتبرير ارتمائهم في أحضان العالم الرأسمالي باسم « المعاصرة » ، وحب « التقدم » ، وتيارا ثانيا يناصره بعض المثقفين بادعاء الانصواء تحت لواء بعض النظريات الاشتراكية ، والشعارات التقدمية في السياسة ، والادب ، والفن ، والاخلاق ، فهم يدعون - اذن - تمثيل « اتجاه اشتراكي » ، ولكنه في الحقيقة اتجاه

نعبر عن الخصائص العقلية والنفسية والوجدانية للامة ، والنسرات بعد أنرى ينابيعها وأغزرها ، والمعاصرة ، فمعنى الاصاله انه يجب علينا في ضوء تجربتنا الاشتراكية آتراندة ، ومكاسب مسيرة الانسسان المعاصر ، ان نصدر عن ذواتنا الحقيفيه ، لا عن تجربة غيرنا ، دون انغلاق عن العالم من حولنا ، والمعاصرة أن نعيش تجربتنا الواقعيه ، ونقارنها بنجارب الغير في مظاهرها الايجابية والسلبية دون أن نقطع الصلة بتراث الماضي .

ونعتقد أن هذا هو الفهم المنطقي للسليم للعلاقة الجدلية بين الاصاله والمعاصرة ، فهما عنصران متكاملان ، وليسا متناقضين ، وأسطع برهان على ذلك نجارب التسعسوب التي نريد تفليدها في « معاصرنا » .

ولكن يجب أن نفرق بين المعاصرة باعتبارها « موضه » ، والمعاصرة باعتبارها ابداعا مستمرا ، وعملية جاده صعبه لخلق فيم جديدة أصيله ، فعوض أن يشكر دعاه المعاصرة للتراث ينبغي عليهم الاستفادة من الجوانب التقدميه ، والمضامين الانسانيه في التراث العربي .

انه حل سهل ان نلقي تبعه الهزيمة على تراثنا ، وحضارتنا منتهمين آياها بأنها « حضارة لفظيه » ، ومنتهمين أنفسنا باننا شعب يتكلم أكثر مما يفعل دون أن نبحث الاسباب الحقيفيه التي تحول بينه وبين الفعل الخلاق .

ان أولئك الذين يرون في التراث ، وفي السنود عن مفومات أصاله الامه العربيه من حضارة ، وفكر ، وثقه ، ونقايد ايجابية ، وقيم أخلاقية بناءة عانقا عن الالتحاق بركب حضارة العصر ، وفعودا عن النهضه التقنيه يفرون من مواجهة المشكل الحقيفي الذي يعرقل مسيره الامه العربيه نحو التقدم والازدهار ، مشكل نظم الحكم في بلادنا ، وما يرتبط بها من مظاهر الجمود الفكري والاجتماعي ، وأنواع التأثير الخارجي سياسيا وفكريا . فما يزال نظام الحكم مشكله المشاكل منذ بداية أيلفظه انعريه الحديثه ، فقد شفلت المصلحين طويلا في العانم العربي الاسلامي منذ القرن التاسع عشر ، ثم انتصبت النظم الاستعماريه المباشرة في جل البلدان العربيه ، فاخثقت قضيه الحكم المطلق اقهري واصلاحه ، وقد أصبح الحكم بيد الاجنبي الدخيل ، وبرزت قضيه السيادة الوطنيه ، والتحرر القومي ، وتلازمت فكره تقدميه فيما بعد في الظلم العربي بفكره الحركه السياسيه ، واقتربت بالنسبه لبعض الاحزاب بالعداله الاجتماعيه والمساواه . ومن الطبيعي أن تقترن فكره القويه بكل ذلك ، ولكن المشكله تطفح فوق السطح من جديد غداه احرار البلدان العربيه على استقلالها السياسي ، وعدم توصلها منذ الاستقلال الى انيوم الى حل لمشكله نظام الحكم ، وعادت في اكثر ابدان العربيه مظاهر الحكم المطلق ، وهنا يتازم الوضع ويتفقد ، خاصة وقد نجحت اكثر الحركات السياسيه في بعت الوعي القومي أثناء مرحله التحرر الوطني ، وربطتها بالحرية السياسيه التي أجهضت غداه الاستقلال ، ففقدت الجماهير حماسها ، ومما زاد اظنين بلة ، كما يقولون ، تحجر مرحله التحرر السياسي ، وعدم تطورها الى مرحله انتحر الاجتماعي ، وبناء المجتمع الاشتراكي العادل الذي حلمت به الجماهير العربيه خلال مرحله التحرير ، فقد فنظت الجماهير ، وهبت عليها ربح الملسل والفشل ، ولست بوضوح تنكر غالب الحكام لمبدأ الحرية السياسيه ، وفصمه عن الشعور القومي ، وجذوه الحماس الوطني .

وأعتقد انه لولا تحديات الامبرياليه والصهيونيه للامة العربيه ، وشعورها بضروره التوحد والتكتل لتستطيع مواجهة هذه التحديات ، متناسيه قضيه الحرية السياسيه والديمقراطيه ، صابره على الصنف السياسي ، ونير اتضيم الاجتماعي لاصيبت فكره القوميه نفسها بنكسات ، ولاصبحت الجماهير تتلقى شعاراتها بنون مبالاه ، لانها

أفرغت من محتواها الحقيفي ، وأصبحت لافتات عريضه تبرر بها النظم القائمه في كثير من البلدان وجودها .

وهل نستغرب بعد هذا بروز تيارات سياسيه وفكريه في السنوات الاخيره تقرن نضالها ضد الامبرياليه والصهيونيه فرنا عضويا بالنضال ضد مظاهر الحكم المطلق في البلدان العربيه ؟

ان عدم اتوصل لحل هذا المشكل المقعد يمثل عانقا أساسيا يعوقنا عن تحقيق نهضه عصريه ، ولحافنا بركب المعاصرة انحقه ، وعوض ان نواجه المشائل الحقيفيه المتصله بقضيه نظم الحكم يلتجئ البعض منا الى القاء التبعه على التراث ، والذائدين عن مفومات شخصيتنا القوميه الاصيله .

وقد أن الاوان ان نتساءل عن مفهوم التراث ، وأصنافه قبل ان نحدد موقفنا منه .

ان التراث بمعناه الانساني الحضاري يدخل فيه ما وصلنا على مر العصور والازمنه من الانتاج الآتاري ، والادبي ، والاقتصادي ، والفني ، والاجتماعي ، والعلمي ، والديني ، والاخلافي ، ويمكن ان نقسمه الى ثلاثة أقسام :

- قسم يتمثل في الثروه الكبرى التي تضمها المناحف ، ودور الكتب في البلاد العربيه والاجنبيه من التراث العربي الآتاري ، والفكري ، والعلمي ، والادبي ، والديني .
- وقسم ثان يتمثل في المعالم الآتاريه .
- وقسم ثالث تضمه العادات ، والتقاليد ، والفنون الشعبيه ، والثروه الموسيقيه .

وهذه الانواع مختلفه من التراث يتلفاها الخلف عن السلف كلا متحدا غير منفصل ، فالتراث يتجاوز أيضا فنون الآداب من شعر ، وأدب ، ولغة ، ويشتمل أنواع التراث المذكوره ، ولا سيما التسررات العلمي ، والفنون الشعبيه .

ان ضروب التراث هذه شكل في نظرنا أسس البنساء الهيكلية للثقافه العربيه .

وقد تأثر هذا التراث بحركه التاريخ العربي ، وبالصراف الذي عرفته ، ويحمل سمات البشر الذين أنتجوه .

ونلح هنا بصفه خاصه على اللغه باعتبارها حافظه التراث ، فازمتها من أزمته ، ومشكله اللغه هي مشكله التعبير عن الوجود العربي المعاصر ، وانتنكر لها تنكر تلتراث القومي ، وبالتالي تنكر لمفوم حساس من مفومات الامه ، فالبعض يتخذ من مشائل التراث في الميدان اللغوي حجه للارتداء ، تحت تأثير الفزو الفكري واللغوي في أحضان لغه المستعمر ، فلا يمكن ان نتخذ طريقه استخدام اللغه من طرف المحافظين حيث يميلون الى الإبهام ولايجاد حجه للطنن في اللغه القوميه . ان الأنجاه التقدمي يستعملها بالطريقه الواضحه المباشرة لتتبع قضايا انحياه ، ومشائل الواقع العربي والانساني . ونعتقد ان هناك من يرفض التراث لسبب وحيد يتلخص في ان الاعتراف بالتراث ، وحتى الاعتراف بالجوانب الثوريه التقدميه منه فقط ينتج عنه حتما الاعتراف باللغه ، وبأحيائها عن طريق الاستعمال اليومي في حياة الجماهير الشعبيه . ان تراث الحضاره العربيه الاسلاميه يضم جوانب ايجابية وسلبية ، ولعل الجوانب السلبيه طاغيه لطول عصور الجمود ، والتحجر الفكري ، فما هو نوع التراث الذي ينبغي الاعتناء به ؟

انني أفرق شخصا بين الكشف عن التراث ، والحفاظه عليه ، وبين الاحياء والنشر ، والتعريف الواسع . ان عمليه الكشف والعنايه يجب ان تشمل جميع أنواع التراث بمحتواه السلبى والايجابي معا ، فالجوانب السلبيه تكشف لنا ايضا عن معطيات معينه ، وتساعدنا على فهم عصور تاريخيه طويله لا يمكن ان نتجاهلها لمجرد انها عصور انحطاط وتأخر . وسيقوم بعملية الكشف هذه ذوو الاختصاص

أما الأحياء والنشر ، واستعمال وسائل الاتصال الجماهيري الحديثة لتعريف الشعوب العربية بتراتها فينبغي أن يقتصر على الجوانب التقدمية في تراثنا ، لأن أحياء التراث ليس هدفا في ذاته ، تكفي منه بالفخر والمباهاة ، وإنما عنصر ضروري لفهم حاضرنا ، ودافع لنا في تجربتنا الحاضرة ، ونضال الأمة العربية من أجل تحقيق النصر في معركة الصير ، وبناء الغد المشهود .

ولما للفترة الحاسمة التي نمر بها من خطورة وارتباط أحياء المحتوى الثوري في تراثنا بها ينبغي إعطاء الأولوية للعملية الثانية ، والاقتصار في مرحلة تاريخية معينة على أحياء مضامين معينة يشتمل عليها تراثنا لصلتها المباشرة بسعيها لبناء نهضة حديثة شاملة .

ولا مناصب المنحبة المثقفة العربية بالخصوص من تحديد موقفها تجاه التراث . أن موقفها يختلف - دون ريب - باختلاف اتجاهاتها الفكرية ، وبنكويئاتها الأيديولوجية ، وانتماؤها الاجتماعي .

وأود أن أبدي ملاحظتين هنا :

أولا - يجب أن نفرق بين التراث والرجعية الفكرية .

ثانيا - أن التحول السريع وتطور الأحداث بسرعة في المجتمعات العربية منذ الخمسينات بالخصوص جعل موضوع تحديد الموقف من التراث يطرح على المسؤولين عامة ، والمثقفين خاصة بشكل حاد وخطي ، لأن تحديد هذا الموقف مرتبط بالاختيارات القومية والفكرية التي نريد أن نرسمها للنهضة العربية الجديدة ، وبالرغم من أنه كان تطورا تاريخيا وسياسيا بالدرجة الأولى فقد فرض على النخبة المسؤولة في العالم العربي أن توضح موقفها من التراث ، وهنا يبرز تياران رئيسيان :

- تيار رجعي محافظ يعيش في الماضي ، ويفسد التراث العربي الإسلامي ، ويجمد عنده فيسقط في عدمية وجوذية كاملة فكرا وسلوكا . وهو تيار يؤكد شكلية التراث ، ويضفي عليه مسحة القداسة ، فهو يضر بالتراث ، ويجرحه ، وينفر الناس منه . وينبغي أن نعترف بأن لهذا التيار تأثيرا كبيرا في صفوف الجماهير العربية ، فالرجعية تظهر في صورة الحماية للتراث وحدها لدى شعوبنا .

- أما التيار الثاني فهو تيار تقدمي مجدد يختلف في رؤيته التاريخية كل الاختلاف عن التيار الآخر ، فهو يسعى جاهدا لتحرير التاريخ والتراث ، وغربلته من مظاهر الخرافة والتزييف ، وتخليصه من نظرة التوثيق والقداسة ، واخضاعه لمقاييس المنهجية العلمية ، فهو يقاوم النظرة الطوباوية للتراث التي تستقطب الجوانب المظلمة الجلباء دون انفلات ، ويندد بهذا الموقف الذي يريد أن يحول التراث إلى تراث شكلي خال من محتواه الإنساني .

إن المثقف العربي الثوري يتطلع إلى تراثنا فكرا وحضارة من زاوية شمولية متحدة ذات أبعاد تقدمية تسقط من مضامينها كسل مظاهر الاندحار ، والانفلاق ، والسوداوية ، وتؤكد على ما في تراثنا من شك ورفض وتمرد عميق ، وفكر عملاق ثوري ، وبذلك يصبح تراثنا وثيقة إنسانية رائعة تساعد الإنسان العربي على الصمود في مواجهة التحديات ، وتبشر سبيله في مسيرته مع ركب الحضارة ، والأسهام في عملية تغيير الحياة ، والتأثير في سير عجلة التاريخ البشري .

إن أنصار هذا التيار يؤمنون أنه لن يهز أنجماهير العربية الكادحة إلا صوت من نضال الأجداد يدعو إلى فك الإغلال ، وكسر القيود ، إلا صوت يدعو إلى العدل والديمقراطية والثورة .

إنهما تياران لا يلتقيان ، ولا يمكن أن يلتقيا .

ولكننا نجد مواقف متباينة تجاه التراث داخل التيار التقدمي نفسه ، وهو تباين متأثر بالاتجاهات العقائدية ، والمواقف السياسية

المختلفة ، ونعتقد أنه يمكن إيجاد أرضية واحدة ، والاتفاق على المبادئ العامة رغم الفروق في انقائدها تقوية لهذا التراث ، وتدعيمها لتأثيره في الجماهير . والخطوة الأولى نحو هذه الأرضية البعد عسن « التقدمية المفرطة » التي تحذف الماضي والحاضر كلياً ، وتجمد الرؤية في مستقبل يصبح صنما مقدسا يضحي على مذبحه الإنسان ، فالإيجابية المفرطة تفقد كيانها بتجاوزها الحد .

إن التيار التقدمي لفهم التراث يجب أن يدعم ، وأن تسخر له وسائل العمل التي يمكن من عملية فرز كبير لإبراز الجوانب الثورية الإنسانية المضيء في التراث ، فهو الجانب الذي يعكس نضال الأمة العربية ويمثل أمشاطا من وعي الإنسان العربي ، ويعبر عن الذات العربية وتجربتها ويحدد مميزاتها ، ويبرز شخصيتها وأصالتها ، فهذا العمل يساعد العقل العربي على التخلص من اغترابه نتيجة النظرة المتحجرة للتراث .

وهذه النظرة العلمية للتراث هي التي تستطيع الثقافة الثورية أن تعتمد عليها نقطة انطلاق في مساراتها للمجتمع الجديد ، وفي تأكيدها على التواصل القائم بين الماضي والحاضر والمستقبل .

إن التاريخ العربي حافل باللحظات المضيئة المشرقة ، والعقل العربي لم يقل حرية ومنهجية عن حرية ومنهجية العقل الحديث ، فالشبكة الديكارتية المنهجية عرفها الفكر العربي في فترات الحرية الفكرية والحوار . أن الانحطاط لم يبدأ إلا عندما قام السيف مقام الاقتناع والحوار .

إن الموقف العلمي النقدي من التراث هو الوحيد القادر على إبراز كل هذه الجوانب في تراثنا ، وهو الذي يستطيع التزاوج بين الإصيلة التقدمية فيه ، والجانب الإنساني المشع من تراث الفرب على أساس انسجامه مع معطيات واقعنا ، ومعانم شخصيتنا .

وتجدر الإشارة هنا إلى ضرورة الحذر في إبراز العناصر التقدمية الثورية في التراث العربي من الوقوع في مساوئ التحجر العقائدي، وتطبيق معايير غريبة عن المجتمع العربي ، وأحياء مضامين منزلة عن أطيافها التاريخي والحضاري .

وفد يتساءل المرء - بالرغم مما كتب حتى الآن - عن مدى ارتباط أحياء المضامين التقدمية الإنسانية في تراثنا لبناء نهضة عربية حديثة .

فقد لمحنا إلى قضية نعد من الأوثان المعلومة ، قضية ارتباط الحاضر بالماضي ، والمستقبل بالحاضر ، فالإنسان العربي الجديد الذي سيساهم في بناء هذه النهضة الحديثة وليسد الماضي ، ولا يستطيع أن ينفصل عنه ، مهما عشق المعاصرة ، وتمتجج بها ، وأصبح أحد صانعيها ، وتقلب على مركب النقص تجاه الحضارة الصناعية . ومن الطبيعي أن تعتمد النهضة العربية الحديثة على تراث

الماضي ، لأنها ليست نهضة علمية تقنية مجردة ، بل نريدها نهضة شاملة متكاملة تهدف إلى خلق مواطن عربي حر ، مؤمن بقضاياها ، جدي في أفعاله ومواقفه ، متفائل بمستقبله ، معترف ببلاده وأمنته ، بريء من مركبات النقص ، بعيد عن النظرة الشوفينية الضيقة ، والتعصب الأعمى ، إنساني في تضامنه وشعوره ، منطقي في تفكيره ، علماني في نظره الكونية . فهل نستطيع خلق هذا الإنسان الجديد ، ركيزة النهضة المنشودة بمجرد رفع شعارات التكنولوجيا و«الافتات» (المعاصرة) ، و«الفتح» ، وتجاهل المعطيات الحضارية ، والثورة الترائية ؟ فالمعطيات الحضارية هي التي تساهم في خلق انشوعي القومي ، وتحديد مميزات المواطن الذي نعمل على تنشئته ، وهل نتصور مجتمعنا صناعيا تظفي عليه ظاهرة التكنولوجيا دون وعي حضاري ، وارتباط بقيم وطنية ، ومراحل تطور تاريخي تشمل شتى تبادلين .

إن خلق عقلية تقنية ، وبناء نهضة صناعية يتطلب أولا وبالذات روحا جديدة ، وحياة متفتحة ، وثقة في النفس ، ولكن الأوضاع التي

تعيشها اكثر المجتمعات العربية بعيدة كل البعد عن جميع مقومات بناء مجتمع تقني متطور ، فليست هناك نظم تربوية دقيقة ناجحة ، واضحة الاهداف ، فعالة في وسائلها ، فهي تشكو مظاهر الحفظ والفوضى في التفكير ، وسيطرة العاطفة .

وقد جعل انتشار روح التشاؤم والقنوط كثيرا من الشباب العربي يفر الى الحياة السهلة ، وأركض وراء مظاهر الحياة العصرية في مختلف شكلاتها ، ولعله من المفيد ان نذكر هنا ان اكثر البلدان العربية لا تملك منظمات شباب تنظم وتحرك هذه الطاقات الجبارة الكامنة في نفوس أجيال الصاعدة ، فهي منظمات فوقية تؤدي عملا روتينيا بيروقراطيا .

أما الثقة بالنفس فهي تكاد تكون مفقودة ، فليس كل مواطن عربي فهم الاسباب الحقيقية للهزيمة ، وليس في مصلحة كثير من النظم القائمة ان يعرفها ، وما دام لم يدرك الاسباب الحقيقية ، فلا يستطيع ان يتخلص من مركبات النقص ، وهي مركبات يفدها ألفوز التربوي والثقافي . اننا لا نستطيع أبدا ان نشيد نهضة صناعية بشباب يشكو العدد الاوفر منه هذه الازمات ، واسرع فأقول : اني لا أحمل الشباب مسؤولية هذه الاوضاع التي يعيشها ، ان المسؤولية تتحملها الامة العربية جمعا ، وقد عجزت منذ ما يربو عن قرن عن حل مشكلة المشاكل في بلدنا ، مشكلة نظم الحكم ، وايجاد أقوم السبل لتعبئة جميع القوى الوطنية الحية الصادقة المؤمنة بالتطور لتشييد نهضتنا .

ولا أريد ان اصل من وراء هذه الملاحظات الى ان مرحلة النهضة التقنية لم تكن بعد في المجتمع العربي ، او أننا عاجزون عن خوض معركتها ، بل اعتقد انه ينبغي على العالم العربي ان يكرس كل طاقاته المادية والبشرية للخروج من التخلف التكنولوجي ، والقضاء على مركب النقص تجاه الحضارة الصناعية ، ولكنني أومن عميق الايمان بأننا لا نستطيع ان نتقدم بخطوات جدية ثابتة في هذا السبيل الا في نطاق نهضة عربية حديثة شاملة ، يكون الوعي الحضاري بمظهره العربي والانساني نقطة انطلاقها .

ومن أجل بلورة الوعي الحضاري العربي ، ونشر ثقافة وطنية اصيلة تلقى مع المحتوى الانساني الخالد في ثقافات الشعوب الاخرى نحتاج الى التراث العربي بعد تجديد نظرنا اليه ، وغربلته من جوانب التخلف وانزيف ، ومظاهر الجمود والتزمت والقداسة . وقد تمت محاولات جدية في الثورة على القدسية واستعادة حرة للتراث ، ففي الادب نجد استعادة طه حسين للشعر الجاهلي من خلال معايير الشكية الديكارتية المنهجية . ان نظرة التقديس هي التي نار عليها طه حسين بصرف النظر عن النتائج التي توصل اليها ، وفي العشرينات ايضا ظهرت محاولة اخرى « الاسلام واصول الحكم » لعلي عبدالرازق ، وفي الثلاثينات محاولة ثالثة « امرأتنا في الشريعة والمجتمع » للطاهر الحداد ، بالإضافة الى عدد من الكتب حول دراسات اسلامية مثل « تاريخ الثمن الاسلامي » لجرجي زيدان ، والموسوعة الاسلامية لاحمد امين ، وتبرز اثر انتفاضات سنة ١٩٢٥ و ١٩٣٦ وانتهائها بهزيمة تجسدت في المعاهدة المصرية البريطانية ظاهرة تتمثل في هروب أكثر رواد الفكر الليبرالي ، وقد سبقوا رواد الفكر الاشتراكي في تقييم اثار التراث العربي حسب مقاييس منهجية جديدة ، من مواجهة الواقع ، وخوض معركة جديدة بعد خيبة الاولى الى الانكباب على التاريخ الاسلامي ، ودراسته . وبغض النظر عن اسباب هذا الاهتمام فقد غربلوا الكثير فيما نشره عن السيرة النبوية ، ونشأة الاسلام ، فظهرت عبقریات العقاد ، وكتاب « محمد » لتوفيق الحكيم ، وعلى هامش السيرة ، والفنسة الكبرى لطف حسين ، و « حياة محمد »

لمحمد حسين هيكل . وتمر بعد ذلك فترة فراغ في هذا المجال ليتصدى التيار التقدمي بعد هزيمة حزيران بالخصوص لرد الفعل الرجعي ، فيضع بعض جوانب التراث تحت مجهر النقد ، ويغربلها من كثير من مظاهر الزيف ليقدّم للقارئ العربي بعض المحاولات الجريئة الهادفة ، من أهمها « محمد رسول الحرية » لعبد الرحمن الشرفاوي ، و « اليمين واليسار في الاسلام » لاحمد عباس صالح ، و « الله والانسان » لمصطفى محمود ، و « نقد الفكر الديني » لصادق جلال العظم ، و « مشروع رؤية جديدة للفكر العربي في العصر الوسيط » ، وهي محاولات قابلة - دون شك - للنقاش في كثير من جزئياتها ونتائجها ، ولكن جانبها الايجابي يبرز في الاسس العلمانية المنهجية التي انطلقت منها في نقدها للتراث ، وازالة ما علق به من تزمت وتحجر .

والاالحظات الرئيسية في هذا الصدد هي :

اولا - ان الفكر العربي بتباريه الليبرالي واليساري لم يستطع خلال نصف قرن ان يخلق مدرسة واضحة المعالم والاهداف في اعادة النظر في التراث بصورة منظمة مسترسلة ، وهذا هو السبب فيما نلاحظه من فترات فراغ ، وفي ظهور محاولات جريئة من فترة لاخرى دون تواصل وارتباط . ولعل تفسير ذلك يعود أولا الى ما اتسمت به الحياة السياسية في العالم العربي من مد وجزر ، ولا سيما منذ الاربعينات ، وما اقترن بذلك من صراع فكري بين تيارين رئيسيين ، تيار رجعي محافظ ، وتيار تقدمي بجناحيه : الليبرالي واليساري ، وثانيا الى الانقسامات الايدولوجية التي تشكو منها النخبة المثقفة العربية .

ثانيا - ان العرب المسلمين لم تكن لهم نظرة التقديس والتصنيف للماضي في القرون الاولى من التاريخ الاسلامي ، فالصادر الاساسية زاخرة بمواقف الحرية ، والنقد ، والشك ، وارتفض تجاه سياسة الدولة الاسلامية في نشأتها ، وتجاه المسؤولين عن شؤونها . ويمكن ان نذكر امثلة كثيرة في هذا الشأن تفيض بها كتب السلف أنفسهم . وأرى ان لهذه النقطة أهميتها ، لان انصار نظرة تقديس التراث يدعون اللود عن التراث الديني بالخصوص ضد تطرق النقد والشك اليه ، فلا بد ان نعترف بان التراث العربي الاسلامي مرتبط بالايمان الديني ، ولكن التراث الديني نفسه يحتوي على كثير من الجوانب الايجابية المشرفة ذات النزعة الثورية الانسانية . والخطر يتمثل فقط في استغلال هذه الجوانب من فئات تنسب الى تيارات رجعية لتدعيم نفوذها ، والمحافظة على امتيازاتها في العالم العربي .

ثانيا - ان الامة العربية لم تستطع منذ يقظتها الحديثة ان توفق بين الاعتزاز بتراثها ، والاعتماد على العناصر التقدمية الحافزة فيه وبين مقتضيات حياة معاصرة .

فلا يمكن ان تقوم نهضة عربية حديثة ووحدة تقدمية مصرية ، اساسها العدل ، والحرية ، والاشتراكية ، مؤمنة بالتطور التقني ، جاهدة للمساهمة في الالتحاق بالثورة التكنولوجية دون ان تنطلق من مقومات ذاتيتها ، ومن أكثرها فعالية ، وأعمقها تأثيرا التراث بما فيه من مضامين قوية وانسانية .

ويجب أن يتجاوز التراث مرحلة تاريخية دعم خلالها قومية محلية ضيقة الى تدعيم مفاهيم قومية أكثر اتساعا ، وشمولا ، فهي القومية القادرة على قطع الاشواط بسرعة وطى الراحل ، وتحقيق النهضة الحديثة الشاملة ، وللتراث رسالته الخطيرة في تحقيق وحدة هذه النهضة الشاملة .

وأمل ان يكون قد اتضح من خلال هذه الكلمة ان قضية احياء المضامين الثورية الخالدة في التراث العربي ليست قضية نبش قبور

## صفحة من تنقلا نائية

ضلائك غاب\* ،  
 وأشجانك الفابرات ندامى  
 بقين على هذب العين رجع صدى ،  
 ومع الذكريات انقاد جوانح ،  
 « ما من عزاء »  
 فقد هيل فوق الزهور التراب ،  
 وأودى الهجير بعش الطفولة ،  
 ضاعت طمأنينة الامسيات العذاب ،  
 الربيع لهاث صحارى ،  
 ووعد الحبيب مصابيح ليل تطفان ،  
 كل الدروب الى النار والجوع والهاويات ،  
 وكل التضرع ،  
 كل البراءه ،  
 كانا شرك الظلام ،  
 ونهر دماء ودمع ،  
 تعلمت ان تكتم الحزن والقهر ،  
 ان تبتسم رغم الجراح ،  
 وأن تتخطى قيودك في ساعة الوجد ،  
 كان الشتاء كقول ،  
 ينوش يديك ورجليك ،  
 دارك بين العواصف في كفة الرعب ،  
 ايامك القادما صلال\* ،  
 لكم كنت تسأل :  
 كيف ؟.. لماذا الجفاء ،  
 ( ارتعاش المساء الذبيح ،

رضوان عقل

سورية

( ارتعاش المساء الذبيح ،

الشعوب ، أم مصالح الفئات الحاكمة ؟  
 واذا تم الاختيار على الطريق الثاني ، او فرض ، فان البلدان  
 العربية ستعجز منفردة عن الوقوف في واجهة التحديات ، فتستسلم .  
 ان من الصعب حقا التغلب على تخلف فرون طويلة ، وأوضاع  
 معقدة بفترة ، او حتى بقرات ، ولكن لنبدأ ، ولنتمتع في قضية  
 المصير هذه على سلاح ناجح ايضا : التراث افومي ، ولتكشف على  
 جوانبه التي تخدم هذه المعركة المصيرية الصعبة ، وهي جوانب غنية  
 مشرقة قادرة على شحذ أداة المعركة : الحرية ، وفضل أسلوبها ،  
 الثورة ، وتوضيح سبيل المواجهة الجديدة لكل التحديات : الوحدة  
 المرحلية ( \* ) .

الحبيب الجنداني

تونس

( \* ) محاضرة قدمت الى المؤتمر الدولي للتاريخ الذي انعقد في  
 بغداد من ٢٥ - ٣٠ آذار الماضي .

الماضي ، أو هروب من الحاضر المأساوي ، بل هي جزء لا يتجزأ من  
 معركة المصير . فقد عاشت الامة العربية هزمتين ، هزيمة ١٩٤٨  
 وهزيمة ١٩٦٧ ، سلطنا أضواء كاشفة على نقاط الضعف الحضاري  
 في حياتها ، فالاولى بلورت نظرية القومية العربية ، وجعلت الثانية هذه  
 القومية تعيش ازمة حادة ، خانقة ، ازمة اختيار حاسم ونهائي :

— اما الوحدة باعتبارها الطريق الوعر الوحيد مع الوعي الكامل  
 بمشاكلها المعقدة ، وتناقضاتها الداخلية ، والقوى المعادية لها في  
 الخارج ، وقدرتها على حل التناقضات الداخلية اثناء المسيرة والصمود  
 في وجه القوى المعادية الخارجية . ونلح هنا على أهمية ذلك الوعي  
 الكامل حتى لا تحدث النكسة ، وتخب آمال حماساتها : الجماهير  
 العربية .

— او الانكماش والانزامية بحجة اختلاف الأوضاع الداخلية  
 للمجتمعات العربية ، وتضارب المصالح ، ولكن مصالح من : مصالح